

## بالسيف:

### كيف تتحقق الحلول السلمية لصراعات الشرق الأوسط؟

إدارة "المشروعات العلمية المشتركة" بوضعها الحالي، لكن لسبب أهم، هو أن الصراعات الرئيسية داخل الإقليم بدأت تدخل تلك المرحلة، التي تظهر وتتسع خلالها احتمالات التقدم نحو تسويات سلمية أو سياسية لها، كما هو واضح في حالات سوريا وليبيا واليمن. وتتمثل المشكلة في أنه إذا تم الاعتماد على مفاهيم التفكير التي يتبناها الـ (Pacifists)، وكان المطلوب سلام بأي ثمن، فإن المشاكل لن تحل، ولن تكون الحلول مستقرة، أو بصورة أدق، ستظل التهديدات معلقة في سقف الإقليم، على الرغم من أن تلك الأطر تقدم أساليب عمل جيدة، عندما تتحقق شروط السلم.

في هذا الإطار، توجد مجموعة من الافتراضات التي تشكلت من واقع خبرة صراعات متعددة طويلة، وعمليات سلمية مركبة، يمكن أن توضح طبيعة البيئة الحالية في المنطقة، والتي لم تسكت فيها المدافع بعد، لكن غرف التفاوض قد بدأت في العمل، أهمها:

1- إن العلاقات الدولية قد تجاوزت منذ عقود مرحلة "الأبيض والأسود"، التي سادت خلالها ثنائيات مثل الحرب والسلام أو الدبلوماسية والاستراتيجية، التي كانت تعبر عن حالات شديدة الانفصال، لكل منها أساليبها، لتظهر الحالات المعقدة، أو التي بدت معقدة في بداياتها، كالحرب الباردة أو "السلم المسلح"، أو اللا سلم واللا حرب، التي حكمت تفاعلات الدول بأكثر مما حكمتها حالات الحرب وحدها أو السلم وحده، بل إن الأمور تطورت لتمتد التداخلات إلى علاقات الحلفاء التي أصبحت تدار بصعوبة أيضاً، فلم يعد هناك تفكير للحرب وفكر للسلم، ولا توجد حاجة هنا لتكرار عبارة كلاوزفيتز المعروفة، وهي "أن الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى"، فالحالة التالية ستكون مركبة.

في ندوة حول "مصادر تهديد أمن الشرق الأوسط" عقدت مؤخراً، كان أحد المتحدثين الأوروبيين يقدم شرحاً للنموذج الأوروبي في إدارة المشكلات الأمنية على مسرح القارة هناك، وحسم الأمر في عبارة واحدة، وهو "أن الحرب ليست خياراً للتعامل مع مشكلات الأمن التي تنفجر على الساحة الأوروبية"، كمشكلة أوكرانيا، لكن ربما تمثل خياراً مطروحاً بمستوى ما إذا ما تم المساس بمصالح حيوية أوروبية خارج القارة، ووفقاً له - وهو تصور مستقر فعلاً - فإن عدد ضحايا الحروب الأوروبية، كان بشعاً لدرجة أنهت كل فكره في ذهن الأوروبي حول الحرب كأداة لتحقيق أي شيء.

الملفت أن بعض المشاركين الغربيين كانوا يسألون عما إذا كانت جماعة في المنطقة تمارس عنفاً إرهابياً مباشراً، تفعل ذلك فعلاً، أو لا يمكن التفاوض معها، فالانفصال هناك

هناك تصور بأن المسألة ثقافية، وقد تكون "الروس" أحد أبعادها بالفعل، لكنها أعقد من ذلك، فلا أزال أذكر دورة تدريبية عن "حل الصراعات" نظمها المركز القومي لدراسات الشرق الأوسط بمصر في منتصف التسعينيات، بالتعاون مع مؤسسة "البحث عن أرضية مشتركة" الأمريكية، إذ ذهب شباب الباحثين المشاركين فيها إلى بحيرة قارون بالفيوم، حيث تعقد، وفي أذهانهم جميعاً تصور محدد لماهية الصراعات والطريقة التي تدار بها، قبل أن يفاجأوا بما اعتبروه محاولة خارجية لاختراق العقول الصغيرة التي شكلتها ما لا يقل عن 5 حروب رئيسية شهدها الإقليم، بين العرب وإسرائيل، والعراق وإيران، وعدد لا حصر له من الصراعات العربية - العربية، آخرها وقتها حرب الكويت.

كان على المنظمين أن يحدثوا تحولاً، يفترض أن يتم بمقتضاه فهم أن الصراعات لا تكون حتماً بين دول، وأنها لا تدار بالضرورة من خلال القوة العسكرية، كشرط مسبق للتفاعل مع مفهوم "حل الصراعات"، الذي كان جوهره - وفق إطار الدورة - استخدام الأدوات السلمية، كالتفاوض والوساطة، وكل ما يرتبط بالحوار، للسعي من أجل حل المشكلات، عبر البحث عن أرضية مشتركة، ولم نكن نفهم كيف يمكن أن يتم ذلك، مع وجود ثقافة استراتيجية عناوينها العامة، صراع وجود وليس حدوداً، صراع قيم وليس مصالح، وما أخذ بالقوة لا يسترد بغيرها، وحتى إذا أبرمت معاهدات سلام، فإن "التسوية السلمية لا تعني نهاية الصراع"، وإنما تحوله إلى مجالات أخرى. وبالمناسبة، لاتزال بعض تلك التصورات قائمة.

خلال السنوات الثلاث الماضية، وبالتوازي مع موجة صراعات هائلة تفجرت داخل المنطقة، اندفعت - على المستوى الأكاديمي - موجة موازية، قادمة من غرب أوروبا، وبالذات الدول الإسكندنافية، من "مشروعات حل الصراعات"، تطرح الأفكار القديمة نفسها، مع نماذج و"منهجيات" أكثر تعقيداً، كتحويل الصراعات، في ظل الأسئلة نفسها التي تستغرب من عدم قدرة أطراف المنطقة على الحوار مع من يعتبرونهم "أطرافاً مختلفة" أو على التفاوض بين الأطراف المتصارعة، بينما تحاول الجهات الإقليمية المشاركة معها في "التمرين" أن تدفع في اتجاه أن تتم دراسة وتحليل الصراعات القائمة أولاً، قبل أن يتم الحديث عن حلولها، وبالمناسبة، يحدث ذلك على المستويات الرسمية أيضاً.

الفكرة هنا، هي أن هذا التيار سوف يتصاعد بشدة في الفترة القادمة، وسوف يسيطر على نسبة كبيرة من اهتمامات مراكز التفكير في المنطقة، ليس فقط بفعل طبيعة عملية

خاصة إذا كانت تتم بين طرف منتصر وطرف مهزوم، فمن هزم لا يجب سحقه، بل العكس أحياناً، إذا أقر بوقوع أخطاء من جانبه، لكن ما يحدث، أو ما سيحدث، في الحالات الراهنة في المنطقة، هو أن أي طرف لن يحصل على أكثر مما يمكن أن تصل إليه فئات مدافعه، في المرحلة الأولى على الأقل، فلم يترك طرف للأخر خيارات كثيرة، والأسوأ أن أطرافاً تحمل "خناجر" تحت المائدة أحياناً.

**إن هدف الحرب مسألة مهمة حالياً، ففي الماضي كانت الأوضاع الاستراتيجية تتيح لأي طرف تصور أن الهدف هو تحقيق انتصار مدو، أو تكبيد الطرف الآخر هزيمة ساحقة، لكن لم يعد من المتصور القيام بذلك، ولم يعد من المنطقي التفكير في القضاء على الطرف الآخر، وهذا غير ممكن غالباً، وبالتالي فإن الهدف الأقصى هو تفكيك قواته وإخراجه من ساحة المعركة، أو - وهو الأكثر واقعية - تحجيم قوته، لدفعه إلى الجلوس على مائدة المفاوضات، والحصول على ما يتيح له وزنه الحقيقي ذلك، أقل أو أكثر.**

**إن أهداف الحرب سياسية، لكن المشكلة هي متى يعتبر طرف ما أنه حقق أهدافه بالفعل، أو متى يقرر طرف أنه لن يتمكن من تحقيقها، أو متى سيتأكد طرف ثالث من أنه أنهك بالفعل، وليس لديه ما يفعله سوى تكبد المزيد من الخسائر، وبالتالي يقرر دخول الأبواب التي يتم طرقها، في اتجاه المفاوضات.**

**في النهاية، فإن العنصر الحاكم لكثير من مسارح العمليات في المنطقة هو توازن الضعف، وليس موازين القوة، كما هو قائم في ليبيا وسوريا، بحيث لن يتمكن طرف ما من تحقيق أهدافه كاملة، وأحياناً توجد موازين قوة مختلة بوضوح لصالح طرف ما، مع حساسية الطرف الأقوى للخسائر البشرية مقارنة بالآخر، أو عدم رغبة أطراف خاضت معارك سابقة في أن تعيد الكرة مرة أخرى، أو قد يدور القتال في مسارح عمليات معقدة في ظل تحالفات متحركة، بحيث يكون على الطرف الأقوى النظر في كل اتجاه، وحماية خطوطه الخلفية، فالحروب أصبحت مرهقة، حتى في الحالات التي تكون فيها ضرورية.**

**يوجد تعبير آخر مهم، وهو أن الحرب أكبر من أن تترك للجنرالات، فدائماً توجد حسابات أعقد مما يجري في مسرح العمليات، فعناصر القوة الميدانية قد تمكن طرف ما من تكبيد الطرف الآخر خسائر فادحة، لكن حتى بافتراض تمكنه من تجنب الخسائر الجانبية، فإن موازين القوى السياسية قد تختل لصالح طرف ثالث، سيئ أيضاً، يقف بعيداً، أو قد تنهار الدولة كلها بصورة لا يتم التمكن من إعادة توحيدها، أو إعادة إعمارها، إلا بعد فترة طويلة، أو بتمويل لا يحتمل، وبالتالي قد تدار الحروب وفق حسابات سياسية أيضاً. المهم، أن المشكلة ليست في عقولنا التي ترفض التسويات السياسية، وإنما فيما يحدث على الأرض، والذي لا يمكن معه الوصول إلى طريقة سهلة، لإعادة الاستقرار، في الشرق الأوسط.**

**د. محمد عبدالسلام**

مدير المركز  
أبوظبي، أكتوبر 2015

قد حدث بين الحرب والسلم بفعل خبرات تاريخية قاسية، أما في المنطقة، فإنه إذا حدث ذلك بعد 10 سنوات من الآن، ستكون معجزة حقيقية، في ظل ملامح الصراعات الراهنة، وعقلية الجماعات المتطرفة، التي توجد أيضاً برامج علمية منتشرة حالياً، تحاول التفكير فيما إذا كان من الممكن أن يعاد تأهيلها، وإدماجها في دولها، أو أن تراجع نفسها، وإلى أن يتم الوصول إلى إجابات محددة، سيظل التشابك في الشرق الأوسط بين حالة الحرب وحالة السلم قائماً.

**2- إن الصراعات الدولية عامة، قد أصبحت معقدة لدرجة تواضعت معها، المفاهيم التي تتعلق بكيفية التعامل معها، فقد أصبح مصطلح "حل الصراع" مجازياً تماماً، بحيث تحول إلى إطار عام لمجال التعامل السلمي مع الصراعات، فالتيار الرئيسي في الدراسات الاستراتيجية (وليس تيار السلام) يرى أن الصراعات لا تحل إلا بنهاية الأطراف التي خاضتها، وظهور أجيال أو قيادات تالية لها، وأن ما هو ممكن فقط هو تسويتها سياسياً، على أساس الحل الوسط والمصالح الناقصة لأطرافها، فلن يحصل كل طرف على ما يريده كاملاً أبداً.**

الدراسات الأكثر تقدماً، التي تحلل صراعات أكثر تعقيداً، تقرر أنه حتى التسوية السلمية المستقرة قد تكون صعبة، فكل طرف لديه أجنحة داخلية، بعضها متطرف بشدة، أو لديه رأي عام، ويخشى أحياناً من الاتهام بالسلمية أو فقدان السلطة، والأسوأ أن الجماعات المتطرفة لديها قناعات مقدسة، وكرامية عميقة، ورغبات انتقامية، وهي أمور معاكسة لكل شيء تتعلق بالعقلانية التي تتيح الحلول السياسية، ووفقاً لذلك، فإن كل ما يمكن القيام به مع الصراعات هو "الاحتواء"، أي صيغ ما لحلول جزئية، أو تفاهات محددة، أو وقف إطلاق نار، كبدليات على الأقل.

**الفكرة هنا، أن المسألة لن تتعلق بحل شامل مرة واحدة، وإنما بمحاولات وقف إطلاق نار تنهار مراراً، أو جولات تفاوض لا تصل إلى شيء عدة مرات، فلن يبرم أحد اتفاقاً يطيح به، أو لا ترضى عنه قواعده، وغير ذلك، المهم أن العملية سوف تطول. وتشير خبرة المنطقة إلى أن الصراعات التي تنفجر أكثر من تلك التي تحل كل عام، فالحروب بطيئة والتسويات بطيئة، أو ستكون كذلك.**

**3- إن القوة هي أساس السلام، كما أنها أساس الحرب، فالتحولات الكبرى في التاريخ قد جرت فقط من خلال استخدام القوة المسلحة أو التهديد باستخدامها، وإذا كانت علاقة القوة بالحرب لا تحتاج توضيحاً، بفعل استناد الحرب إلى "موازين القوة" قبل أي شيء آخر، فإن علاقة القوة بالسلام تحتاج إلى تأكيد، فمن الممكن عكس مقولة كلاوزفيتز، لتصبح السياسة استمراراً للحرب لكن بوسائل أخرى، تستند إلى الموازين القائمة نفسها في مسرح العمليات، لكن بثمن أقل، أو بمأس أقل، لكل الأطراف.**

**إن الجدل التقليدي الخاص بأسس التفاوض، يقرر أنها إذا استندت إلى منطق المصالح وليس منطق القوة، يمكن أن تصل إلى نتائج مستقرة، وهذا صحيح ويجب مراعاته،**